عبقرية الجاحظ (١)

—((0))—

تبين لنا في كلامنا على عصر الجاحظ ان الجاحظ متصل بكل أفق من آفاق هذا العصر، فلئن استفاضت حرية التفكير في عصره فما غاب عن هذه الحرية فقد كان يرجع الى عقله في كل مذهب من مذاهبه، ولئن شاعت الزندقة والخرافات والاباطيل في أيامه فما غفل عن التنديد بها والتقذر منها، بقي أن نعلم مقدار اتصاله بالناحية الثالثة من نواحي عصره، وهي جهة الانقلاب الفكري فما هو نصيب الجاحظ من هذا الانقلاب ؟ —

نقلت في أيامه كتب الهند وترجمت حِكَم اليونانيين وحوّلت آداب الفرس، فما هو حظ الجاحظ من هذا النشاط الفكري ؟ —

قد كنت ذكرت لكم في بعض المواطن ان الجاحظ انما هو كامل من الكملة وأردت بكملة الكامل ما يريده الافرنجة بكلمتهم Encyclopédiste فالجاحظ لخص معارف عصره على نحو ارسطاطاليس في القديم، وقد أشار بعض الافرنجة الى امتداد هذه العبقرية وانبساط مجالها فاستشهد أحدهم وهو البارون «كارادي فو» Baron Carra de Vaux في كتابه : أصحاب الفكر في الاسلام، بفصل الجاحظ في نفع الكتاب وهو الفصل الذي عقده في مقدمة كتاب الحيوان فدلّ على براعته في الانشاء فبعد أن ذكر البارون طائفة من هذا البحث قال :

«هذا بوجه التقريب نمط من أنماط فصول الجاحظ، ان في هذا كله مجموعاً قد يكون في بعض الأحيان غير منسجم ولكنه ملآن بالحوادث والأفكار، اني لا أجسر على أن

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الاداب في دمشق سنة ١٩٣١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أؤكد أن كل فصوله قد تكون خصيبة مثل هذا الفصل ولكننا قد نلاقي في كلها بعض الشيء ، ولنذكر ايضاً أن في رسائله الصغيرة قطعاً جديرة باستيقاف الباحثين وخليقة بدراسة خاصة ففي رسالة التربيع والتدوير تعرض لنا ولا أدري كيف يكون ذلك سلسلة طويلة فيهامسائل في كل أنواع الموضوعات والعلوم ، في التاريخ والأساطير وطبقات الارض كأن هذا كله انما هو برنامج «موسوعة» تدل على روح التطلع في القرن التاسع وفي رسالة الأسود والأبيض كلام موجز على تاريخ الزنج وذكر أبطالهم وفتوحاتهم ، كل هذا مجموع حوادث قلّ من يعرفها وقد تنفع في البحث عن روح الامم والأجناس . —

ان هذا النوع من علم الروح كثيراً مايستهوي الجاحظ فهو يرجع اليه من حين الى آخر فان عقله الغريب الميّال الى النقائض يحمله على النظر في الأمم التي لم يكن لها على أيامه مقام عال ، وعلى هذه الصورة ان لرسالته في مدح الترك فائدة ومن الممكن ان تكون هذه الرسالة اول الكتب التي توسّع أصحابها في الكلام على الترك وجعلوا لهم بعض الشأن فان خصائص الامم تشغل ذهن الجاحظ فهو يأتي على ذكرها في عدة مواطن . — »

* * *

خاض الجاحظ في كل باب من الأبواب فلم يتعاظمه الكلام على الاجتماع أو على الأخلاق أو على التربية والتعليم أو على الطبيعة أو على التاريخ الطبيعي أو على فلسفة اللغة الى غير ذلك من المذاهب التي تدلّ على سعة عبقريته غير أن استقصاء هذه الغرائب والعجائب قد يطول أمره ولكننا لامندوحة لنا عن الإلمام ببعضها حتى نعرف شيئاً من امتداد عقل الجاحظ . —

يتنقل الجاحظ على نحو ماتال البارون « كارادي فو » من فكرٍ الى فكر ولكنه يظل في هذه التنقلات صاحب نكتةٍ ، خفيف الروح ، محبوب النفس ، انه يلعب من دون ان يُضجر غيره في هذا اللعب . —

مرةً يخطر بباله باب من أجل أبواب الاجتماع في هذا العصر وهو الكلام على حقوق النساء فينبري للدفاع عن المرأة والمطالبة بتوفير حقوقها فكأنه نصير النساء في أيامنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه [١] :

« ولسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو باكثر ولكنا رأينا ناساً يَزْرون عليهن أشد الزراية ويحتقرونهن أشد الاحتقار ويبخسونهن اكثر حقوقهن وأن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام الا بان ينكر حقوق الأمهات والأخوال فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن ولولا ان ناساً يفخرون بالجلد وقوة المنة وانصراف النفس عن حب النساء حتى جعلوا شدة حب الرجل لأمته وزوجته وولده دليلاً على الضعف وباباً من الخور لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه في هذا الكتاب . — »

وقد قال في مقام آخر [٢] :

« ونحن وان رأينا أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء اكثر وأظهر فليس ينبغي لنا أن نقصر في حقوق المرأة وليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء ان يصغر حقوق الأمهات وكذلك الإخوة والأخوات والبنون والبنات وأنا وان كنت أرى ان حق هذا أعظم فان هذه أرحم . — »

ومرةً يتغلغل في أعماق الجماعات فيقلّب النظر في أخلاقهم فلا يزال يمارس هذه الأخلاق ويدوّن في ذهنه نتائج مراسه وتجربته حتى يكشف الغطاء عن أسرارها فيقذف في هذا المعنى بالرأي الخمير الذي لا تزيده الايام الا قوةً وتمكنًا من هذا الباب كلامه على السفلة والوضعاء والمحقّرين الذين اذا صار اليهم شيء من الامر ظلموا وغشموا [٣] :

« والكِبْر في الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم فصار لا يعرف ذلك الا أهل المعرفة ، كعبيدنا من السند وذمتنا من اليهود ، والجملة ان من قدر من السفلة والوضعاء والمحقرين أدنى قدرة ظهر من كبره على من تحت قدرته على مراتب القدرة ما لا خفاء به فان كان ذميماً وأحس بما له في صدور الناس تزيد في ذلك واستظهرت به طبيعته بما يظن ان فيه رقع ذلك الخرق

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد — الجزء الاول ص ١٥٢ .
(٢) » » » » ص ١٦١ .
(٣) كتاب الحيوان الجزء السادس ص ٢٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحياض ذلك الفتن[1] وسد تلك الثلمة فتفقد ما أقول لك فانك ستجده فاشياً وعلى هذا الحساب من هذه الجهة صار المملوك أسوأ ملكاً من الحر وشيء قد قتلته علماً وهو اني لم أر ذا كبر قط على من دونه الا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه ٠ — »

ونحن اذا تفقدنا ماقاله وجدناه فاشياً كل الفشو حتى نكاد نلمس بايدينا هذه الأخلاق في كل جانب من جوانبنا فما أصدق قوله ، وما أبين رأيه ! لقد تعمق في روح الجماعات وأمعن في دراسة هذه الروح فبعد دراسته للحيوان وإظهاره لاخلاقه وطبائعه ومقابلته بين أصناف هذا الحيوان وكلامه على تعادي هذه الأصناف ، بعد هذا كله يرتفع الى أفق أعلى من أفق الحيوان فيصور عداوة الانسان ويوضح أسباب هذه العداوات فيقول[2] :

« وأسباب عداوات الناس ضروب منها المشاكلة في الصناعة ، ومنها التقارب في الجوار ، ومنها التقارب في النسب والكثرة من أسباب التقاطع في العشيرة والقبيلة والمساكن عدو للمسكن والفقير عدو للغني وكذلك الماشي والراكب وكذلك الفحل للخصي وبغضاء السُوق موصولة بالملوك وكذلك الوُضَلة بالمال الرغيب وكذلك الوارث والموروث ولجميع هذا تفسير ولكنه يطول ٠ — »

فلو أحببنا أن نمتحن قوله في هذه الايام لما وجدنا فيه انحرافاً عن الحق فليس آراؤه في الاجتماع الا بنات تجربته وعيانه وكما انه درس أخلاق الجماعات العامة فكذلك درس أخلاقهم الخاصة وأمعن في هذه الدراسة في مثل كلامه على البخل أو على الفسق اوعلى الحسد فلم يفته لون من ألوانها أو حركة من حركاتها أو هيأة من هيآتها ، ومن قرأ كتابه في الحاسد والمحسود تجلّت له قدرته على تصوير الاخلاق الخاصة فيكاد يكون في هذا الباب عالماً من علماء النفس يتصل باجزائها فيقاربها ويخالطها ويعرض لكل ناحية من نواحيها ويصف هذه الناحية أدق وصف ويصورها أتم تصوير حتى اذا فرغ من البواطن انتقل به الكلام الى الظواهر فراقبها وتأمل فيها واستخرج منها صفاتها البارزة وخصائصها الظاهرة ولولا اني اعتقد ان في نقل طائفة من هذا كله تشويهاً لمحاسنه لنقلتها لكم ٠ —

ماذا أنقل ، أأنقل هذا التعريف الوجيز الذي صوّر فيه بكلمتين داء الحسد فقال :

« والحسد أبقاك الله من داء ينهك الجسد ويفسد الأود ، علاجه عسر ، وصاحبه

(١) كذا في الاصل ٠ (٢) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٣٠ ٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ضجر وهو باب غامض وامر متعذر وما ظهر منه فلا يداوى وما بطن منه فمداويه في عناء ٠— »

فمن كان له صلة بحاسد من الحساد تجلت له صحة هذا التعريف وشعر بقوته فأيُّ حاسدٍ لم نر جسده منهوكاً وصدره ضجراً لايملكه غمض الليل ولا يذوق لذة البال فلا تقع عينه على صاحب نعمة الاَّ اضطربت كل أعصابه وكأن الطبيعة عادلة فقد جعلت في قلب الحاسد عقابه وما هذا العقاب الا النار التي تأكله ٠—

أم أنقل لكم حالة الحاسد الظاهرة :

« وما لقيت حاسداً قط الاَّ تبين مكنونه بتغير لونه وشخوص عينه واخفاء سلامه والاقبال على غيرك والاعراض عنك والاستثقال لحديثك والخلاف لرأيك ٠— »

أم حالته الباطنة وهي تنحصر في :

« تراكم الغموم على قلبه واستكمان الحزن في جوفه وكثرة مضضه ووسواس ضميره وتنغص عمره وكدر نفسه ونكد عيشه ٠— »

أم تمكن الحسد من صاحبه وسلطانه عليه :

« ما خالط الحسد قلباً الا لم يمكنه ضبطه ولا قدر على تشحينه وكتمانه حتى يتمرد عليه بظهوره واعلانه فيستعبده ويستميله ويستنطقه لظهوره عليه فهو أغلب على صاحبه من السيد على عبده ومن السلطان على رعيته ومن الرجل على زوجته ومن الآسر على أسيره ٠— »

أم وصفه علاج الحسد :

« فاذا أحسستَ رحمك الله من صديقك بالحسد فأقللْ مااستطعت من مخالطته فانه أعون الاشياء على مسالمته وحصّنْ سرّك منه تسلم من شره وبوائق ضره واياك والرغبة في مشاورته ولا يغرنك خدع ملقه وبيان زلقه فان ذلك من حبائل نفاقه فان أردت ان تعرف آية مصداقه فأدنين اليه من يهينك عنده ويذمك بحضرته فانه سيظهر من شأنه لك ما أنت به جاهل ومن خلاف المودة ماأنت عنه غافل وهو الحُّ في حسده لك من الذباب وأسرع في تمزيقك من السيل الى الحدور ٠— »

أم وصفه الحاسد نفسه :

« فهو الكلب الكلب والنمر النمر والسم القشب والفحل القطم والسيل العرم وان ملك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قتل وسبي وان مُلِك عصى وبغى حياتك موته وموتك عرسه وسروره يصدق عليك كل شاهد زور ويكذب كل عدل مرضي لا يحب من الناس الاَّ من يبغضك ولا يبغض الاَّ من يحبك عدوك بطانة وصديقك علانية ٠ — »

فاذا دققنا في هذه الأوصاف كلها تحقق عندنا ماقلته لكم من ان الجاحظ عالم من علماء النفس يبني علمه علي تجربته ثم يصف ماتوحي اليه هذه التجربة وصف صاحب صنعة وفن ٠ —

ولما كانت التربية والتعليم لاتبعد كثيراً عن الأُمور الاجتماعيـة لم يشأ الجاحظ أن يكون غريباً عنها فقد أدلى في هذا الباب بدلوه ، وعلى بعد عهده عنّـا وعلى تقدم علم التربية والتعليم في عصرنا استطاع الجاحظ أن يأتي فيه بمذاهب تكاد تكون من احدث المذاهب ، انكم تعالجون التربية والتعليم علماً وعملاً فأظن أن من أحدث قواعده التي تطبقونها في مدارسكم تدريب الطالب علي الاستنباط من دون أن يلجأ الى الحفظ لان الحفظ يسدُّ عليه سبيل الاستنباط فيجمد عقله ويبلد ذهنه فاليكم ما قاله الجاحظ في هذا الباب [1] :

« وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه واغفال العقل من التمييز حتى قالوا : الحفظ عذق النسيان ولأن مستعمل الحفظ لا يكون الاَّ مقلداً والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه الى برد اليقين وعز الثقة والقضية الصحيحة والحكم المحمود انه متى أدام الحفظ أضرَّ ذلك بالاستنباط ومتى أدام الاستنباط أضرَّ ذلك بالحفظ ٠ — »

وكتابه في المعلمين قد اشتمل علي القواعد المتبعة في التعليم في أيام الجاحظ فهو يصوّر لنا أساليب التربية والتعليم في العرب ٠

ولم يكن نصيب الجاحظ من علوم الطبيعة بأقلَّ من نصيبه من بعض فصول في الاجتماع والأخلاق والتعليم وما شابه ذلك ، الاَّ انه قد يكون في آرائه الاجتماعية أصح فكراً وأقلَّ خطأ اما في علوم الطبيعة فالجاحظ علي جلالة بعض أقواله فيها قد لا يسلم من خطأ ، فان علوم الطبيعة قد تقدَّمت في السنين الأخيرة ولكن الأخلاق واحدة في العصور قديمها وحديثها فالحسد الذي صوَّره الجاحظ انما هو شبه الحسد الذي نقاسي شرَّه في أيامنا ٠ —

(١) رسائل الجاحظ علي هامش المبرد للكامل — الجزء الاول ص ١٩ ٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خاض الجاحظ في كثير من علوم الطبيعة في الحكمة الطبيعية والكيمياء وتوسّع في التاريخ الطبيعي وخاصة في علم الحيوان ٠ —

فلننظر الى بعض آرائه في هذه العلوم ٠ —

انكم تعلمون انهم كانوا في عصر الجاحظ يمزجون الدين بالعلم معنى هذا أنهم اذا جادلوا في أمرٍ من أمور الدين استعانوا في بعض الأحوال بمذاهب العلم من هذا الشكل مجادلة الجاحظ لمجوسي عارضه وقد قرأتم هذه المعارضة في كلامنا على عصر الجاحظ في فصل حرية الفكر ، فمن قول الجاحظ :

« والماء ليس يجمد للبرد فقط فيكون متى رأينا بلدة ثلجها أكثر حكمنا أن نصيبها من البرد أوفر وقد تكون الليلة باردة جداً وتكون متغيرة فلا يجمد الماء ويجمد فيما هو أقل منها برداً ٠ وقد يختلف جمود الماء في الليلة ذات الريح على خلاف ما يقدرون ويظنون ٠ وقد خبرني من لا أرتاب بخبره انهم كانوا في موضع من الجبل يستعذبون به بلبس المبطنات ومتى صبوا ماءً في اناء وزجاج ووضعوه تحت السماء جمد من ساعته فليس جمود الماء بالبرد فقط ٠ ٠ ٠ »

اما اليوم فاننا لا نرضى بهذا الرأي على علاته فاننا اذا بحثنا عن جمود الماء قلنا يجمد الماء ويزداد حجمه اذا وصل الى درجة من الحرارة تبلغ الصفر في الميزان المئوي وجموده على صورة قطعة من جليد مركّبة من بللورات مسدّسات الشكل كثافتها ٠٫٩١٨ ٠ —

وكما تعرّض للحكمة الطبيعية فقد تعرّض للتاريخ الطبيعي فهو من أصحاب مذهب « التولد الذاتي » وله في هذا المعنى حكايات كثيرة من جملتها قوله [1] :

« والذباب من الخلق الذي يكون مرّة من السفاد والولادة ومرة من تعفن الاجسام والفساد الحادث في الأجرام والبلاء اذا عتق شيئاً في الأقباء استحال كله ذباباً فربما أغفلوه في تلك الأقباء فيعودون الى الأقباء وقد تطاير من الكوى والخروق فلا يجدون في الأقباء الا القشور والذباب الذي يخلق من الباقلاء يكون دوداً ثم يعود ذباباً وما أكثر ما ترى الباقلاء مثقباً في داخله شيء كأنه مسحوق اذا كان الله قد خلق فيه الذبان وطيّره منه وما أكثر ما تجده فيه تام الخلق ولو تم جناحاه لقد كان طار ٠ — »

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وله من هذا الشكل آراء كثيرة في كتاب الحيوان فهو يؤمن بحدوث الخلق من غير ذكر ولا أنثى ويخلق الديدان من الجيف[١] ويخلق القمل من العرق والوسخ اذا علاهما ثوب أو ريش أو شعر[٢] :

لقد أبطل العلم هذه الآراء بمجامعها فقد دلت تجاريب « پاستور » Pasteur على ان «التولد الذاتي» أمر ممتنع فكل حجيرة مصدرها حجيرة مثلها وكل حي لا يلده الا حي مثله معنى ان الأحياء لا تلدها المواد العضوية أو المواد المعدنية ٠ —

وقد كان للمتقدمين معتقدات غريبة في هذا الباب فقد زعموا ان القمل يلده لحم الانسان وان الديدان يلدها اللحم الفاسد وان البق ينشأ عن اختمار الروائح وماشابه ذلك ٠ —

ان هذا كله قد ردّه العلم في أيامنا واذا وجدنا الديدان في اللحوم فمعنى هذا ان الذباب باض في هذه اللحوم فلو منعنا الذباب عن البيض لامتنعت الديدان فاذا ظهرت أحياء في مادة عضوية أو في مادة معدنية فهذه الأحياء ناشئة عن أحياء مثلها تغلغلت في هذه المواد وما اكثر تجاريب «پاستور» في هذا المعنى ٠ —

والى جنب هذه الآراء الباطلة قد تجد للجاحظ آراءً جليلةً في العلم تكاد تكون من أحدث الآراء فالحيوان في بيئة مايكون تركيب خلقته مناسباً لهذه البيئة فمن قول الجاحظ في الضب[٣] :

« قالوا : من كَيْس الضب ان لايتخذ جحره الا في كُدْية وهو الموضع الصلب أو في الارتفاع عن المسيل والبسيط ولذلك توجد براثنه ناقصة كليلة لانه يحفر في الصلابة ويعمّق الحفر ٠ — »

فانظروا كيف علّل نقصان براثنه وكلالتها فبراثنه ناقصة كليلة لانه يحفر في الصلابة ويعمق الحفر وهذا التعليل علمي محض ٠ —

والى جنب هذا كله بحثه عن غريزة الحيوان وعن إحساسه ومأأحببت ان استقصي هذه الآراء فادل على مابطل منها وعلى ماصح في عصرنا هذا فان هذا العمل انما هو عمل العالم

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٤
(٢) » » » الخامس ص ١١٢
(٣) » » » السادس ص ١٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا الاديب فاذا تفرغ علماؤنا لتدوين أطوار العلم في العرب استطاعوا أن يجدوا للجاحظ مادة واسعة في هذا الباب وأما عملنا فاننا نقتصر فيه على ايجاز في الكلام على الجاحظ من حيث سعة عبقريته :—

وبينا نجده يبحث أمثال هذه المباحث اذ يتفرغ لباب من أروع أبواب اللغة وهو باب : حياة الألفاظ ، انكم تعلمون أن لتغيير معاني الألفاظ أسبابًا منطقية وأسبابًا روحية وأسبابًا أدبية ، فمن جملة الأسباب المنطقية الاستعارة فالاستعارة تنقل اسم الشيء الى شيء غيره لصفة من الصفات يشترك فيها الشيئان فورقة الشجر تعير اسمها ورقة الكتابة بسبب الرقة التي تشترك فيها الورقتان فانظروا كيف يخوض الجاحظ في مثل هذا الفصل فيقول [1] :

« ثم سموا الأطام التي كانت بالمدينة للامتناع بها من الأعداء صياصي قال الله عز وجل : وانزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم والعرب تسمي الجارح وذا الجثة صاحب سلاح فلما كان اسم سلاح الديك ومايمتنع به صيصية سموا قرن الثور الذي يجرح صيصية وعلى انه يشبه في صيصية صورته بـ صيصية الديك وان كان أعظم ثم لما وجدوا تلك الأطام معاقلهم وحصونهم وجنتهم وكانت في مجرى الترس والدرع والبيضة اجروهما مجرى السلاح ثم سموها صياصي ثم اسموا شوكة الحائك التي بها تهيأ السداة واللحمة صيصية اذا كانت مشبهة بها في الصورة فان كانت أطول شيئًا ولانها مانعة من فساد الحوك والغزل ولانها في يده كالسلاح متى شاء أن يجأ به انسانًا وجأه به وقال دريد بن الصمة :

نظرت اليه والرماح تنوشه كوقع الصياصي في النسيج الممدّد

وقد تسمي العرب ابرة العقرب شوكة كما تسمي صيصية الديك شوكة وهي من هذا الوجه شبيهة بشوك النخل ويقال لمن ضربته الحمرة قد ضربته الشوكة لأن الشوكة اذا ضربت انسانًا فما اكثر ما تعتريه من ذلك الحمرة ....— »

ثم توسع في هذا الباب على هذا النحو —.

هذا نمط من الأفكار التي عالجها الجاحظ يدلكم على شيء من سعة علمه وامتداد أفياء عبقريته ومن خصائص الذين يخوضون في أبواب كثيرة ويتعرضون لمذاهب شتى قلة التعمق فقد تعرض لهم أفكار كثيرة لانبساط ثقافتهم فيلمون بها إلمامًا ولا يتعمقون فيها تعمقًا فهم

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٨٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يفهمون كل ما يقع عليه نظرهم ولكنهم قد لا يفهمونا إياها في بعض الاوقات على نحو فهمهم لها فالجاحظ من هذا القبيل في بعض مباحثه فهو يلهو بالمعاني لهواً فيخرج من فكر الى فكر ومن معنى الى معنى ولكنه يضرب في آفاق كل المعاني ويجول في ميدان كل الأفكار ، ايُّ كتاب من كتبه بل ايُّ سطرٍ من سطوره لا يوطئ للقاريء مجال التفكير وسوآء أتوسع في أفكاره أم ألمَّ بها إلماماً انه عظيم ولست أدري هل أورثتنا عبقرية العرب أعظم منه فهل نعرف حياةً أوسع آفاقاً من حياته العقلية وذهناً أخصب تربةً من ذهنه وفكراً اشدَّ انطلاقاً من القيود من فكره ، لقد ذاق لذَّة الحياة العقلية وتقلَّب في أعطافها فخالط عالم الأفكار واستأنس بهذا العالم فلم يستوحش من ناحية من نواحيه ، خاطب العقل في قرن متكامل ولكن هل تعلمون أي عقلٍ خاطبه ، لقد خاطب العقل الذي يكره كل باطلٍ من الاباطيل وكل قيدٍ من القيود ، فما كان عقله يأنس الاَّ بضياء الاشياء وما كان هذا العقل ينقبض الاَّ عن ظلامها ففي كل يوم كان يطلع على العالم بأفكار حديثة فما كان غذاؤه الاَّ الأفكار والاَّ المعاني ، لقد سكر كل حياته بألوان الأدب وبرنَّات الفاظه وثمل كل عمره من لذَّة العلم فجعل هذا الأدب وهذا العلم نزهة عقله ومشحذة طبعه وبجح نفسه وعمارة صدره !

دمشق : في ٢ نيسان ١٩٣٢

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net